سلسلة

تدبر القرآن الكريم

سورة الكافرون

جمع وترتيب

عبد الله عوض محمد الحسن

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين. وبعد..

ضمن سلسلة تدبر القرآن الكريم، نتمعن سورة عظيمة مباركة مخلصة للعقائد داعية للحق نابذة للباطل وأهله؛ ألا وهي سورة الكافرون.

فنسأل الله تعالى أن يعلمنا ماينفعنا وينفعنا بما علمنا ويجعلها حجة لنا لا علينا، انه ولي ذلك سبحانه وتعالى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

التعريف بالسورة

♔ أسماؤها:

سورة الكافرون

سورة الكافرين

سورة الدين

سورة الإخلاص

سورة العبادة.

تسمى مع سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) بـ"المُقشقِشتيْن.

♔ مكية النزول.

♔ عدت الثامنة عشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الماعون وقبل سورة الفيل.

♔ عددها: أربعة وتسعون حرفا، وست وعشرون كلمة، وست آيات.

♔ الغرض: تأييسهم من أن يوافقهم في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال، وأن دين الإسلام لا يخالط شيئا من دين الشرك.

♔المقصد: تقرير توحيد العبادة والبراءة من الشرك وأهله.

فضائل السورة

◇ أخرج محمد بن نصر، والطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «﴿قل هو الله أحد﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قل ياأيها الكافرون﴾ تعدل ربع القرآن» وكان يقرأ بهما في ركعتي الفجر.

◇ وأخرج أحمد، وابن الضريس، والبغوي، وحميد بن زنجويه في ترغيبه عن شيخ أدرك النبي ﷺ قال: «خرجت مع النبي ﷺ في سفر فمر برجل يقرأ ﴿قل ياأيها الكافرون﴾ فقال أما هذا فقد برئ من الشرك، وإذا آخر يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ فقال النبي ﷺ: بها وجبت له الجنة» وفي رواية «أما هذا فقد غفر له» .

◇ وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن الأنباري في المصاحف عن أبيه قال: يا رسول الله علمني ما أقول إذا أويت إلى فراشي قال: «اقرأ ﴿قل ياأيها الكافرون﴾ ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك» .

◇ وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقي الله بسورتين فلا حساب عليه ﴿قل ياأيها الكافرون﴾ و﴿قل هو الله أحد﴾» .

◇ وثبت في صحيح مسلم من حديث جابر «أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، وبقل هو الله أحد في ركعتي الطواف» .

◇ وفي صحيح مسلم أيضا من حديث أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر» .

◇ وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، وابن مردويه عن ابن عمر «أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعا وعشرين مرة، أو بضع عشرة مرة ﴿قل ياأيها الكافرون﴾ و﴿قل هو الله أحد﴾» .

◇ وأخرج الحاكم وصححه عن أبي قال: «كان رسول الله ﷺ يوتر بـ سبح، و﴿قل ياأيها الكافرون﴾ و﴿قل هو الله أحد﴾»

سبب النزول

▪ نزلت في رهط من قريش قالوا : يا محمد، هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما في يديك قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك. فقال : " معاذ الله أن أشرك به غيره ". فأنزل الله تعالى : ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ إلى آخر السورة. فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك.

▪ وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن عباس أن قريشا دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح، قال: ما هي ؟ قالوا: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، قال: « حتى أنظر ما يأتيني من ربي، فجاء الوحي من عند الله ﴿قل ياأيها الكافرون﴾ ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ إلى آخر السورة، وأنزل الله ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ إلى قوله: ﴿بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾ » .

معاني الألفاظ الغريبة

﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾: لا أعبد مستقبلا ما عبدتم من الآلهة الباطلة.

﴿لكم دينكم﴾: لكم شرككم، وكفركم.

﴿ولي دين﴾: لي إخلاصي، وتوحيدي الذي لا أبغي غيره.

مناسبة السورة لما قبلها

لما أخبره في الكوثر أن العريق في شنآنه عدم، وجب أن يعرض عنه ويقبل بكليته على من أنعم عليه بذلك، فقال معلما له ما يقول ويفعل: ﴿قل﴾.

ولما كان شائنه أعرق الخلق في الضلال والبعد من الخير، قال مناديا له بأداة البعد وإن كان حاضرا معبرا بالوصف المؤذن بالرسوخ: ﴿يا أيها الكافرون﴾.

التفسير الإجمالي للسورة

قل - أيها الرسول -: يا أيها الكافرون بالله.لا أعبد في الحال ولا في المستقبل ما تعبدون من الأصنام.ولا أنتم عابدون ما أعبده أنا؛ وهو الله وحده.ولا أنا عابد ما عبدتم من الأصنام.ولا أنتم عابدون ما أعبده أنا، وهو الله وحده.لكم دينكم الذي ابتدعتموه لأنفسكم، ولي ديني الذي أنزله الله عليّ.

تأملات السورة

- سميت سورة الكافرين مع سورة الإخلاص بالبراءتين لأن السورتان يدور موضوعهما حول التوحيد فسورة الكافرون فيها توحيد العبادة، وسورة الصمد فيها توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

- تقدم في الحديث أنها تعدل ربع القرآن؛ ووجه ذلك أن القرآن مشتمل على الأمر والنهي، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بعمل القلوب وإلى ما يتعلق بعمل الجوارح، فحصل من ذلك أربعة أقسام، وهذه السورة مشتملة على النهي عن عبادة غير الله تعالى، وهي من الاعتقاد، وذلك من أفعال القلوب. فكانت هذه السورة ربع القرآن على هذا التقسيم.

- افتتاحها بـ (قل) للاهتمام بما بعد القول بأنه كلام يراد إبلاغه إلى الناس بوجه خاص منصوص فيه على أنه مرسل بقول يبلغه، وإلا فإن القرآن كله مأمور بإبلاغه.

- النداء موجه للأربعة الذين قالوا للنبيء ﷺ: فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، وابتدئ خطابهم بالنداء لإبلاغهم؛ لأن النداء يستدعي إقبال أذهانهم على ما سيلقى عليهم.

- نودوا بوصف الكافرين تحقيرا لهم وتأييدا لوجه التبرؤ منهم، وإيذانا بأنه لا يخشاهم إذا ناداهم بما يكرهون مما يثير غضبهم؛ لأن الله كفاه إياهم وعصمه من أذاهم.

- جيء بالفعل الماضي في قوله: ﴿ما عبدتم﴾ للدلالة على رسوخهم في عبادة الأصنام من أزمان مضت، وفيه رمز إلى تنزهه ﷺ من عبادة الأصنام من سالف الزمان وإلا لقال: ولا أنا عابد ما كنا نعبد.

- فائدة ما وقع في السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله ﷺ إلى ما سألوه من عبادته آلهته، ويقال: إنهم كرروا عليه الكلام مرة بعد مرة، فكرر الله تعالى عليهم الإجابة.

- ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ تذييل وفذلكة للكلام السابق بما فيه من التأكيدات، وقد أرسل هذا الكلام إرسال المثل، وهو أجمع وأوجز من قول قيس بن الخطيم: نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف.

- قوله تعالى : ﴿قل ياأيها الكافرون﴾ وصف يكفي بأن عبادتهم وديانتهم كفر.

- قوله تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ هو نظير ما تقدم في سورة يونس ﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ وكقوله: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ وليس في هذا تقريرهم على دينهم الذي هم عليه، ولكن من قبيل التهديد والوعيد. كقوله: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها﴾ .

- مخالفة أهل الكفر والفجور في المسميات الشرعية ضرورة حتمية؛ لئلا يلتبس الحق بالباطل، والهدى بالضلال، والإسلام بالكفر.

- ﴿لكم دينكم ولي دين﴾: ذُكِر في تفسير الفخر: (جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة وذلك غير جائز؛ لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل ليتدبر فيه ثم يعمل بموجبه) اهـ.

وهذا كلام غير محرر؛ لأن التمثل به لا ينافي العمل بموجبه، وما التمثل به إلا من تمام بلاغته واستعداد للعمل به. وهذا المقدار من التفسير تركه الفخر في المسودة.

- غلط في السورة خلائق وظنوها منسوخة بآية السيف، لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم، وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة، وعمومها نص محفوظ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإن أحكام التوحيد الذي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه، وهذه السورة أخلصت التوحيد، ولهذا تسمى سورة الإخلاص كما تقدم.

ومنشأ الغلط: ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم، ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف، فقالوا: هو منسوخ.

- قال ابن كثير استدل الإمام الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة فورث اليهود من النصارى وبالعكس، إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به؛ لأن الأديان -ما عدا الإسلام- كلها كالشيء الواحد في البطلان.

- في هذه السُّورة منهج إصلاحي؛ وهو عدم قَبولِ ولا صلاحية أَنصاف الْحلُولِ; لأنَّ ما عَرَضُوهُ علَيه ﷺ مِنَ الْمشاركَة في الْعبادة يُعتَبَرُ في مقْياسِ الْمنطقِ حلاًّ وَسَطًا؛ لاحتمالِ إصابة الْحقِّ في أَحد الْجانبينِ، فَجاء الرَّدُّ حاسمًا وزاجرًا وبشدَّةٍ; لأَنَّ فيه -أَي فيما عَرَضُوهُ- مُسَاواةً للْباطلِ بِالْحقِّ، وفيه تعليق الْمُشكلَةِ، وفيه تقْرِير الْباطلِ إن هو وافَقَهم ولَو لَحظَةً.

- تعتبر هذه السورة مميزة وفاصلة بين الطرفين، ونهاية المهادنة، وبداية المجابهة. وقد قالوا: إن ذلك بناء على ما أمره الله به في السورة قبلها: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ أي وإن كنت وصحبك قلة، فإن معك الخير الكثير، ولمجيء "قل" لما فيها من إشعار بأنك مبلغ عن الله، وهو الذي ينصرك، ولذا جاء بعدها حالا سورة النصر وبعد النصر: تب العدو. وهذا في غاية الوضوح.

الوحدة الموضوعية للسورة

سمى الله تعالى هذه السورة باسم المعادين له وهم الكافرون تحقيرا لهم وللتبرء منهم ومن أفعالهم، ولذا خاطب فيها النبي صلى الله عليه وسلم ولم يخاطبهم، وأمره أن يناديهم بأداة البعد وصيغة التحقير (يا أيها الكافرون) واستغرقت اللام كل من كان على هذا الوصف في كل مكان وكل زمان.

وإنما عبر بالجمع الذي هو أصل في القلة وقد يستعار للكثرة إشارة إلى البشارة بقلة المطبوع على قلبه من العرب المخاطبين بهذا في حياته ﷺ وإشارة إلى حقارة الكافر وذلته وإن كان كثيرا.

وأمره تعالى أن يتبرأ من دينهم بالكلية في الحاضر والمستقبل؛ لقطع الطمع عن مرادهم، فأنتج قطعا مقدما لما يتعلق بهم على وجه اختصاصهم به تأكيدا لما صرح به ما مضى من براءته منهم (لكم دينكم ولي دين).

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في القرآن أشد غيظا لإبليس من سورة الكافرون؛ لأنها توحيد خالص، وبراءة من الشرك .

وقد تبين من ذلك أن وحدة موضوعها:

الإخلاص والبراءة من الكفر وأهله.

فوائد الآيات

١- تقرير عقيدة القضاء والقدر وأن الكافر من كفر أزلا والمؤمن من آمن أزلا.

٢- ولاية الله تعالى لرسوله عصمته من قبول اقتراح المشركين الباطل.

٣- تقرير وجود المفاصلة بين أهل الإيمان وأهل الكفر والشرك.

المسائل

السؤال: في قوله: ﴿قل﴾ كيف قرئت هذه الكلمة، وهي أمره بالقراءة؟

الجواب: أن قوله: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ جميعه قرآن، ونحن أمرنا بتلاوة القرآن على ما أنزل، فنحن نتلو كذلك.

السؤال: من المعلوم أن كفار قريش كانوا يعبدون الله، ويعبدون غيره، فما وجه نفيِ هذه الآية عبادتهم لله ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ ؟

الجواب: لعدم إخلاصهم لله في عبادتهم؛ فعبادتهم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة.

السؤال: لم قال ما أعبد ب(ما) دون (من) التي هي موضوعة لمن يعقل؟

الجواب من ثلاثة أوجه:

أحدهما: أن ذلك لمناسبة قوله: ﴿لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فإن هذا واقع على الأصنام التي لا تعقل ثم جعل ما أعبد على طريقته لتناسب اللفظ.

الثاني: أنه أراد الصفة كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق، قاله الزمخشري.

الثالث: أن (ما) مصدرية والتقدير: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي وهذا ضعيف.

وقد قيل: إن (ما) بمعنى (من) هاهنا، والله أعلم.

السؤال: قوله تعالى: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ .

يدل بظاهره على أن الكفار المخاطبين بها لا يعبدون الله أبدا مع أنه دلت آيات أخر على أن منهم من يؤمن بالله تعالى كقوله: ﴿ومن هؤلاء من يؤمن به﴾ ؟

والجواب من وجهين:

الأول: أنه خطاب لهم ما داموا كفارا، فإذا أسلموا لم يتناولهم ذلك، لأنهم حينئذ مؤمنون لا كافرون .

الثاني: هو أن الآية من العام المخصوص، وعليه فهي في خصوص الأشقياء المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك﴾ الآية. والحمدلله رب العالمين..

المراجع

#تفسير ابن القيم.
#تفسير السمعاني.
#فتح القدير للشوكاني.
#تفسير ابن جزي.
#التحرير والتنوير لابن عاشور.
#المحرر الوجيز لابن عطية.
#محاسن التأويل للقاسمي.
#أضواء البيان للشنقيطي.
#أيسر التفاسير للجزائري.
#المختصر في التفسير.
#أسباب النزول للواحدي.
#القرآن تدبر وعمل.
#السراج في غريب القرآن.
#هدايات القرآن الكريم.
#الوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم للكاتب.

ααααα